من غرائب المصادفات

قصة

د. عبد الرحمن مراد

حدثني صديقي هشام عن أغرب ما جرى معه من قصص فقال:

سجا الليل، ولف الهـدوء المدينة الجامعية في براغ (العاصمة التشيكية) حيث كنت أقيم، وبينما كنـت قابعاً في غرفتي، غارقاً في الدراسة، وغائصاً في بطـون الكتب، إذ بالباب يقرع.. فتساءلـت ترى من يكون الزائر في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

وناديـت: من الطارق؟ فسمعت صوتاً من الخارج يقول: أنا أحمد، افتح

أديب سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

البـــاب من فضلـــك. فتحت الباب فـــتراءى لي شـــاب داكـــن اللـــون، معتـــدل القامـــة، غليـــظ الملامح، مجعـــد الشعر.. بادرني على الفور: مساء الخير أيها الزميل، أنا طالب جامعـــي وأقيـــم في هـــذه المدينة الجامعيـــة في الغرفـــة رقم ٤١ ولم يسبق لنا أن تعارفنا، فهلا سمحت لي بالدخول؟ أجبته: تفضل، وعقب دخولـــه بادرني قائـــلاً: أستميحك عذراً في قرع باب غرفتك في هذه الساعـــة المتأخرة مـــن الليل، وقد ترددت بـــادئ الأمر في قرعه، ولو لم أر النـــور مولعـــاً في غرفتـــك لما أقدمت على ذلـــك فأجبته: أهلا بك وعلى الرحب والسعة، فأنا أرحب بالضيف في أي وقت كان، فإقراء الضيف عادة عربية أصيلة وأنا رغم اغترابـــي الطويل خارج بلادي إلاّ أنني مازلت أحتفظ بعادتي العربية الأصيلة الصالحـــة، وأرى فيها هويتي التي يجب ألا تنسى.

وعند التعارف، بادرت إلى القيام بواجب الضيافـــة، وحدثنـــي إبّـــان ذلك عـــن بلده ودراسته وبعض شؤونـــه، وسألته: أصدقني القول هـــل زيارتك في هذه الساعة المتأخرة من الليل زيارة تعارف أم زيارة عمل؟ أجابني بابتسامة: هما الاثنان معاً، فقلت له هات ما بحوزتك عسى أن أكون كفيّاً لتحقيق ما أنت قادم من أجله. وحينهـــا انفرجت أساريره، وأخـــرج من جيبه رسالة مـــا لبث أن فضّها وأخرج محتواهـــا ودفع بها إلي قائلاً: عدت إلى مـــكان إقامتي قبل هنيهـــة، ولما فتحت صنـــدوق بريدي وجدت فيه هـــذه الرسالة مـــن صديقتي الألمانية في لايبزيغ. لقد سبق وتعارفنـــا في مناسبة ما، وهذه هي الرسالة الأولى التـــي أتلقاها منها، ولديّ شغف كبير

بالوقوف علــى محتواها. ولما كانت معرفتي باللغة الألمانية ضئيلــة سألت زملائي عمّن يتقــن هذه اللغة فأشاروا عليّ باللجوء إليك وهأنــذا بين يديك. قلــت أستغفر الله وأنا جاهز لخدمتك.

ترجمت لــه الرسالة التي كانت تتضمن حديثــاً عن اللقــاء الجميل بينهمــا وأملا بلقــاءات مستقبلية، إضافــة إلى مزيج من الاستحسان ودفء العواطف والمجاملة..

شكــرني أحمد على ما فعلــت، وأردف متسائــلاً هــل بإمكانك كتابة جــواب لهذه الرسالة قلت: بلى، وأخــبرني ماذا تريد أن يتضمن جوابك، قــال: رداً ملائماً يتضمن كذا.. وكذا..

لبيــت طلبه، وعندمــا انتهيت من كتابة الرسالــة قلت: هات العنــوان لأسجله على غلاف الرسالة، قال اعذرني بشأن العنوان، فأنــا سأسجله فيما بعد غدا صباحاً وأرسل الرسالــة بالبريــد علــى الفــور. قلت هذا شأنــك. أخذ أحمــد الرسالة الجوابية وقد عمت نفسه البهجــة ولمعت عيناه فرحاً بما حظي بــه، وغادرني مودّعاً بمثل ما استقبل به من ترحاب.

لم يمضــ على زيارة أحمــد لي أكثر من أسبــوع تقريباً حتى هــرع إليّ وبيده رسالة أخــرى من الفتاة نفسها، راجياً أن أترجمها له، ثم أكتب رسالــة جوابية لها باسمه على غرار ما فعلت في المرة السابقة، فحققت له ما أراد.

توالــت الرسائــل الــواردة والرسائــل الجوابيــة التي كنت أعدّهــا مذيلة باسمه، ولكنــه كان في كل مــرة يحول دون اطلاعي على اسم صديقتــه أو عنوانها ليكتب ذلك هــو بنفسه بعيداً عن ناظــري، وأدركت كنه ما يرمي إليه، فقد يخشى أن أحظى بعنوان الفتاة فأعمد إلى مراسلتها واختطافها منه، وكانت مثل هذه الحوادث شائعة لدينا نحن الزمــلاء، إلا أنني لم أكن ممــن يقرّون هذا الأمــر، فالصداقــات والعواطــف في رأيي مقدسة ولا يجوز العبث بها لاسيّما أن لديّ عدداً وفيراً من الصديقات التشيكيات، أما تلك الفتاة الألمانية فهي مجهولة لدي غائبة عني، وليس من المعقول أن يستبدل الإنسان «بصداقة وجاهيّة» «صداقة غيبيّة».

لم يكــن باستطاعتــي دائمــاً أن أحــرر لصديقي أحمد رسالــة جوابية في اللحظة نفسهــا التي أترجم له فيهــا مضمونها، بل كنــت أستمهلــه أحياناً لبضعة أيــام واعداً

إياه بإعـداد رد جميل موسع ومنسق، فكان يوافقنـي على ذلـك، ويطير عقلـه فرحاً بما تتضمنـه الأجوبة من عبـارات غزلية وعواطـف جياشة، أمـا رسائـل صديقته فكانـت محتوياتها متوافقـة مع ما تتضمنه أجوبة أحمد التي اعتدت القيام بإعدادها، بل وتزيد عليها حلاوة أحياناً.

وبدأت العواطف ولواعج الحب بالتدفق بين براغ وليبزيـغ، واستدرجـت لاشعورياً لبث عواطفـي الشخصية موشحـة بألوان قوس قـزح، وأريج الزهـر، في نفس الفتاة مذيلـة باسم أحمد. فوضني أحمد في كتابة الأجوبة وفق رغبتـي كمّا وكيفاً، وذلك بعد أن لاحـظ تجاوباً كبيراً مـن الفتاة. وهكذا فقد تحولت الرسالة من بضعة أسطر، كما في الرسالـة الأولى، إلى بضـع صفحات في الرسائل التاليـة، كنت أذيب فيها العواطف وأصهـر الأشواق لأصبهـا في محتواها كما يصهـر الذهب والفضـة وينسـق الألماس ليصوغهـا في قوالـب وحلى تبهـج النفس وتسـر الناظرين، وبمرور الزمـن أصبحت أعيش معها في مختلف لحظات حياتها: فأنا معهـا في منزلها وبين أهلهـا، وأنا معها في العمل، وأنا معها في عطلتها الأسبوعية وفي الرحلات: فها نحن في القارب نجدّف على صفحـة البحيرة الهادئـة، ونتراشق بالمياه، وعلـى شاطئها نطعم البـط البري وفراخه التي اعتادت أن تتجمع حولنا وتستأنس بنا، ومرة في الغابة نتراكض لاقتناص الفراشات وملاحقـة السنجـاب، والاستمتاع بمناظر الأزهـار البريّة الجميلة.. وتـارة أخرى في صالات الموسيقـى نستمتع بسمـاع أعذب الألحان تعزفها الفـرق السيمفونية العالمية لتشايكوفسكـي وبيتهوفن وبـاخ وشتراوس ومـوزارت.. وأحيانـاً في دار الأوبـرا نسر بمشاهدة عرض أوبـرا عايدة أو غراميات كارمـن أو روميو وجوليـت.. وفي حين آخر كنا نتزلج على الثلوج في المنحدرات الجبلية ونأوي إلى الاستراحات في قمم الجبال لنأخذ قسطاً من الراحة والمتعة، ومرة أخرى نتجول في متاحف التاريـخ أو الفن أو العلوم نطلع علـى ما أنتجته الأمم الغابـرة من تراث أو حضـارات.. أو في الملعب الرياضي نستمتع بمشاهـدة المباريات أو نمارس شتى أنواع الرياضة، وأحياناً في النادي الثقافي نستمع إلى محاضرة اجتماعية قيّمة، أو في المرصد الفلكي نستقصي أسرار الكون.. وبدا وجهها المجهول يتراءى لي سحراً في مختلف مظاهر

الحيـــاة: فها هـــو ذا يطل علـــيّ من خلال الوردة الجميلـــة، والدّيمة المعطاء، والشروق الرائع، أو من خلال بللـــورات الثلج المنهمر مما يبعـــث فيّ الدفء ويبث في نفسي طيب الحيـــاة.. أما صوتها المجهـــول فكان يخيل إلى أني أسمعه مـــن خلال ألحان الموسيقى، وتغريد البلابـــل، وخرير المياه.. كنت أنتظر رسائلها الجوابية في شـــوق ولهفة أكثر مما كان يشعر به صاحبي.. وبقدرة قادر تحولت إلى متيّـــم غيبيّ وانتصـــرت العواطف على العقـــل، وأصبحـــت تدريجياً أســـيراً مكبلاً بأغلال حب فتاة مجهولـــة معلومة..! أليس ذلك من غرائب الأمور؟

مرت الأيام وتتابعت الرسائل بين الطرفين لمدة عام تقريباً. ولما أقبلت أعياد الميلاد ورأس السنة، اتفقت وبعض الأصدقاء، أن نقضي سهرة عيد رأس السنة في الفندق الدولي في براغ. كانـــت سهرة ممتعة دامت حتى ساعة متأخرة مـــن الليل أو بالأحـــرى حتى بزوغ الفجر حيث انصرف كل إلى منزله.

عدت أدراجي إلى المنزل كي آخذ قسطاً مـــن الراحة والنوم بعد ذلك السهر الطويل، إلاّ أن النـــوم هجـــر أجفـــاني، وفشلـــت كل المحاولات لإرغام نفســـي عليه. ثم أشرقت الشمس في سماء صافيـــة على غير عادتها في مثل ذلـــك اليوم من أيام الشتاء، وسكبت أشعتهـــا الذهبية علـــى إزار بـــراغ الثلجي فبدت المدينة عروساً اتشحت بثوب ملائكي أبيض قد وشّـــى بالذهب والألماس. أغراني هـــذا المنظر البهيـــج بالخروج مـــن منزلي للاستمتـــاع بالطبيعـــة الخلابـــة. استقليت سيارتي وتوجهـــت إلى مقهى «براها اكسبو» الـــذي يقع وسط حديقة «اللتنـــا» التي تقع علـــى رابية وســـط المدينة، وقـــد نال هذا المقهـــى يوماً الجائـــزة الأولى في أوروبة من حيـــث موقعه وجودة تصميمـــه. بدا المقهى في صبيحة ذلك اليوم، وهو أول أيام السنة، شبه خال من الـــرواد باستثناء بضعة أفراد منتثريـــن ههنا وهناك. جلست قرب النافذة ووجهت نظـــري نحو المدينة، ياله من منظر رائع: نهـــر متجمد، وقد بـــدا الماء المتجمد في موضـــع الشلال –في إحدى مناطق النهر وكأنـــه كريستـــال بوهيمي صـــاف، تنصب عليـــه أشعة الشمس فتزيده بهاء. طلبت من النادل أن يزودني بكأس كبيرة من القهوة كي يصفو ذهني وأبعد أي أثر للكرى عن عينيّ، ورحت أستمتع بمـــا أشاهد: فههنا مجموعة من الصبيـــة والفتيات تتزلـــج على صفحة

النهر المتجمد ذهاباً وإياباً، وقد بدا الجميع بألبستهم البرّاقة الملونة كفراشات أنعشها الربيع بنسائمه فانتشرت تعبر عن مرحها وبهجتها. وتلك هي أشجار الصنوبر التي بدت مثقلة بما تحمله من أعباء ثلجية جميلة وكأنها تود أن تؤكد استمرارية أعياد الميلاد، وأشجار السرو كأنها نسّاك علت هاماتهم عمامات بيضاء، وقد اشرأبوا بأعناقهم نحو السماء يسبحون بعظمة الخالق. والموسيقى الهادئة تصدح في أرجاء القاعة وتنساب في نفسي انسياب الدم في العروق، يصل إلى كل خلية من خلايا الجسم ينقل إليها الغذاء ويمدها بروح الحياة..

وبينما كنت غارقاً فيما يدور حولي من جمال وسحر، منهمكاً في ارتشاف كأس القهوة إذ بصوت نسائي دافئ يفاجئني على مقربة مني قائلاً: صباح الخير أيّها السيّد، هل تسمح لي بالجلوس إلى طاولتك؟ التفتُّ نحو مصدر الصوت لأرى فتاة في ريعان الصبا، مياسة القوام، استعار الورد حمرة وجنتيها، والمروج خضرة عينيها، أما شعرها فشلال من العسل المصفى ينسدل على الكتفين، وتتبعثر خصله على الجبين في نزق محبب يأخذ بمجامع القلوب.. أجبتها تفضلي على الرحب والسعة. فافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة خلت أن أبواب الجنة فتحت لي. وما إن جلست إلى جواري حتى بادرتني بالقول: كل عام وأنت بخير فأجبتها وأنت كذلك. ومن ثم بادرت إلى تعريفي بنفسها فقالت:

أنا أدعى فلورا من ألمانيا، جئت إلى براغ في رحلة جماعية بمناسبة أعياد الميلاد ورأس السنة، ولكن ظروفاً خاصة حالت دون إحيائي رأس السنة البارحة، فنمت باكراً واستيقظت باكراً، وجئت إلى هنا للاستمتاع بالطبيعة من هذا المكان المشرف على المدينة. قلت أنا أدعى هشاماً، اسمحي لي أن أهنئك على هذا الاسم الجميل «فلورا» الذي كان يطلق على إلهة الزهور عند الرومان، ويبدو أن الاسم يطابق المسمى فعلاً، أما رغبتك في الاستمتاع بالطبيعة فهي تتوافق مع رغبتي أيضاً على الرغم من قضائي ليلة عامرة حتى الصباح، لم أذق فيها طعم النوم حتى الآن.

وقصصت عليها مجريات سهرتي ليلة أمس فسرت بما سمعت، وشكرت إطرائي عليها. استمر الحديث بيننا ساعات وأخذ أبعاداً شتى حتى إذا حان وقت الظهيرة

سألتها: ألا ترغبين في تناول وجبة غذاء في أحد المطاعم؟ قالت بلى، قلت هلمي نستقل السيارة ونتوجه لتحقيق هذه الغاية. قدت السيارة عبر شوارع براغ وأزقتها القديمة الرائعة وجسورها الطريفة المتعددة.. كان كل ما حولنا ينطق تاريخاً عميقاً وحضارة ثرية تنم عن ماض مجيد.. سألتها في معرض حديثي معها في الطريق عما إذا لديها رغبة في استبدال المطعم بسكنى في المدينة الجامعية لإعداد الطعام الشرقي اللذيذ، فترددت برهة ثم قالت ليكن ذلك. وحالما دلفنا إلى غرفتي في المدينة الجامعية بادرت إلى إعداد الطعام المؤلف من البرغل واللحم والسلطة الشهية واللبن الرائب. سرّت الفتاة بالطعام، وجلسنا عقب ذلك نتجاذب أطراف الحديث في أمور شتى ونستمع إلى الموسيقى والأغاني المتنوعة من عربية وأجنبية حتى ساعة متأخرة من الليل.. قالت الفتاة صدّقني يا هشام لم أنسجم في حياتي قط مع إنسان بمثل ما انسجمت معك، ويخيل إليّ أنني أعرفك منذ زمن بعيد، أجبتها وأنا كذلك، بل دعيني أصارحك: أني أحب فتاة بالمراسلة، ومتيّم بها إلى أبعد الحدود على الرغم من جهلي لشكلها. فأنا لم أقابلها قط، وبناء عليه فقد رسمت صورة لها في مخيلتي، ومن غريب المصادفة، أن يكون ما تخيلته متمثلاً فيك! أطرقت الفتاة برهة، ثم رفعت رأسها ونظرت إلي نظرة ذات معان، وقالت مبتسمة: إنك شاب رومانتيكي حالم، ويا سعادة من تحب، ثم أردفت تقول أخشى أن يفوتني وقت السفر إلى ألمانيا يا صديقي هشام، فرحلة العودة ستنطلق في تمام الساعة السادسة صباحاً من الساحة القديمة وسط المدينة، فهلا سمحت بالتوجه إلى هناك معاً قبيل موعد الانطلاق، أجبتها: يسعدني ذلك. انطلقنا بالسيارة تطوي الأرض طيّا متوجهين إلى تلك الساحة. كان الوقت ظلاماً والثلج ينهمر بغزارة، وحينما وصلنا مبتغانا وجدنا حافلة الرحلة بالانتظار والناس يصعدون إليها. استأذنتي فلورا لمقابلة المشرف على الرحلة، وقالت سأعود إليك تواً فانتظرني قرب الحافلة. وبجوار الحافلة وجدت أحمد، فقلت صباح الخير يا أحمد، ما الذي أتى بك إلى هنا في هذا الجو الثلجي العاصف؟ قال جئت كي أودع صديقتي، والاعتذار لها بعد أن فشلت مرات عديدة في مقابلتها بسبب إهمال كنت أنا سببه، ثم سألني وأنت ماذا تفعل هنا فأجبته

وأنا كذلك جئت لأودع صديقي التي تعرفت عليهـا صبـاح أمس عن طريـق المصادفة، وقصصت له مختصر اللقاء بها. وما هي إلا برهة حتى عادت فلورا فصحنا نحن الاثنين معاً وبصوت واحد هاهي صديقتي فلورا قد أتت! ذهـل الرجل مما سمع ورمقني بنظرة يتطاير منها الشر واندفع نحوها ليستقبلها إلا أنها أعرضت عنه، ورمقته شذراً واتجهت نحوي لتعانقني مودعة، وحينذاك جن جنون أحمد، وتحول في لمح البصر إلى بركان ثائر، وخاطبها قائلاً: ماذا تفعلين أيتها.. وأمسك بتلابيبها فنهرته، وهمّ بضربها فأمسكتهُ عن فعل ذلك، وهرع بعضـ من كان في الجوار للحيلولـة دون تحقيق مبتغاه. صعدت فلورا إلى الحافلـة وقـد انتابهـا غضـب شديد منه، وراحت تخاطبـه: أيها الوغد الأحمق الكاذب المنافق، ثـم إيّاك أن تقترب مني أو تلمسنـي أو تحدثني أو تراسلني بعد الآن.. ولمّا هدأ روعها وبدأت الحافلة بالانطلاق لم تنسَ أن تفتح النافذة لتقول لي على مسمع منـه «إلى اللقـاء في الألماني أيهـا الصديق العزيز، وشكري لك على ما منحتني إياه من لحظات سعيـدة».! وحينها أقبل علي إقبال الثور الهائـج على اللون الأحمر في حفلات مصارعـة الثـيران في إسبانيـا ليقول لي: كيف تجرؤ على إغواء صديقتي واقتناصها منـي يا.. فأجبته التـزم الأدب في مخاطبة الناس وإلاّ. فأنـا أجهل أنّهـا صديقتك، ولـو عرفت ذلـك مسبقاً لمـا أقدمت على إقامة أيّة علاقة معهـا، فاحترام الصداقة ومستلزماتهـا والعواطف ومـا يلوذ بها هي من مبادئـي في الحياة، وقد سبق وقلت لك أن لقائي بها كان محضـ مصادفة، وأقسم على ذلـك، فأجاب «لو بلعـت المصحف لما صدّقتـك» ثم أردف يقول لابد أن ثمّة حيلة ثعلبية قد اتبعتهـا للتوصل إليها، فيا ويلك منـي عمّا فعلت، فأجبته كفاك حماقة أمام الغرباء، وانسحبـت لأستقل سيارتي وأعود أدراجـي إلى المنزل وفي نفسي نوازع شتى.. والحقيقة أن ثمة نفـراً من الشرقيين سواء أكانوا طلابـاً أم مهاجرين ممن يعيشون في ديار الغرب يوهمون أنفسهم باكتساب نمط الحيـاة الغربيـة، ولكن رواسـب تقاليدهم وعاداتهم تبقى كامنـة في أعماق اللاشعور لتبرز في المناسبـات، فمثلاً إن تعارف شاب شرقي على فتاة غربية كاف بالنسبة له لأن يصنفها في قائمـة الحريم، وإن أي اختراق لهذا المفهوم يجعله يتمثل قول الشاعر

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

تبادلت الرسائل مع فلورا وصببت فيها كل ما يمكن أن يرد في قواميس الحب.. ولما ذهبت إلى زيارتها في ليبزيغ واتضحت ملابسات الأمور، قالت إنه لمن دواعي الدهشة، بل إنها لمعجزة أن يقودني حدسي لاشعورياً للتعرّف على من أحب من بين ملايين البشر، الحبيب الذي بادلته الحب على صفحات الرسائل لمدة تقرب من عام، ووجدت في آرائه وميوله وإحساسه وثقافته الاجتماعية ونظرته إلى الحياة صورة نفسي، فتيّمت به، وبدا يتراءى لي في مظاهر الحياة كافة، ولكن خاب ظني في بادئ الأمر حينما قابلت أحمد بعد طول غياب، لقد خيل لي وكأنه يعاني من انفصام في شخصيته، فثمة تباين كبير ما بين آرائه وسلوكه، إلى أن حدثت المعجزة وتعرفت عليك، وحينها أدركت أني عاشقة ليس أحمد، ولكن من يستكتبه وأعني بذلك أنت، فيا سعادتي بك.

واختتم صديقي هشام حديثه قائلاً: ألست محقاً في الإيمان بالمعجزات، وغرائب المصادفات؟.